انتقـام !

صخاب ثائر لا يقر له قرار ، ينبعث صوته الغليظ الضخم من قاع حنجرته فإذا به مثل خوار الثور إذا اهتاج ؛ وإنه ليحدث من الضجيج وحده مالا يحدثه نفر من الرجال مجتمعين ؛ وما انبعثت جلبة من الشـارع في أي ساعة من النهار أو الليل إلا ردها أهل الحي إليه ؛ ولا شهدوا زحمة أمام دكانه إلا أيقنوا أنها « خناقة » هو بطلها ، ولا وقعت مشاجرة فعلا إلا سألوا من المضروب هذه المرة فما يقع في وهمهم قط إلا أنه هو الضارب، وما أحسبهم لو رعدت السماء وأبرقت إلا ظنوا بادىء الرأي أنه بدأ إحدى معاركه . . . ذلك هو بائع عصير القصب الذي ابتلانا به الله بجعل دكانه تجاه بيتنا يفصل بيننا وبينه الشارع .. والذي استغنى به من يخوفون الأطفال عن « البعبع » والغول والدب وأبي رجل مسلوخة وأضرابها ، ولا عجب فإنه والله لحري أن يخوف به الرجال . .

فظ غليظ في حدود الأربعين ، بين الطول والقصر ، متكرش كأن بطنه قربة سقاء تحت ثوبه تترجرج ، ضخم الزندين ، متشحم العاتقين ، غليظ العنق ؛ منتفخ الأوداج ، مترهل اللغاديد ، صغير الرأس حتى لتبدو عمامته الصوفية البيضاء نصف وجهه ، مفتول الشاربين صغير الحدقتين ، ضيق الجبهة ، واسع الفم طويل الأنياب : بحسبك أن تنظر إليه لتوقن أن في بني آدم من ينتسبون إلى الآدمية ظلماً ..

وقف هذا المثل أمام دكانه يصفع بيده الغليظة «صبيه» وهو فتى في نحو الخامسة والعشرين قصير غير بدين ولا نحيف ، وعجبت إذ رأيته مطرقاً مسبل العينين وملابس العمل تحت إبطه ، لا يتحرك إلا بقدر ما يتحاشى الصفعات واللكمات ولكنها تنزل جميعاً على وجهه وقفاه وعاتقيه ؛ وآلمني هذا الهوان وما فيه من فظاظة كما أحزنتني هذه المذلة التي كثيراً ما يكرب نفسي أمثالها ، ولعمرك ما آلمني لشيء ولا أثور لمنظر بقدر ما آلمني وأثور لمرأى إنسان في موقف المذلة حتى ولو كان من الآثمين ؛ ولطالما سألت نفسي متى أجد في شعبنا هذا من الأنفة والحفاظ ما ينسيه ذل القرون وأقول متى يستكبر عامة الناس في هذه الأمة فيتطاول لهم من عليته وغاصبيه المستكبرون ؟

وحسبت أول الأمر أن هذا العامل قد اقترف سرقة أو خيانة، حتى سمعته يقول وهو مسبل العينين في تخشع « يا عم علي . . لم تضربني ؟ أنت الذي أخرجتني » وكان أحرى به أن يقول : يا أيها الغول أو « يا عم الدب » ، وقال الغول في صوته الفظيع وكأنما يريد أن يشب أظافره في عنق هـذا المسكين « لأنك لا تريد أن تبقى حتى آتي بنيرك » .

وامتلأت حنقاً وألماً لهـذا البغي يقع من الغول صاحب رأس المال على الفريسة المسكينة ذلك العامل الضعيف، ولو كنت في ملابسي التي أخرج بها إلى الشارع لاقتحمت على الدب كهفه ولو أدى الأمر إلى وقوعي بين أنيابه .

ونظرت فإذا فتى في مثل عمر المضروب وفي مثل قامته وجرمه ، يقف أمام الدب ويسأله في عنف والشر ملء وجهه ، وقد تجمع السابلة والألم في وجوههم جميعاً « لم تضرب هذا الرجل ؟ . . » ونظر إليه الدب نظرة استهزاء ظن أنها حسبه ليخاف ؛ وعاد يضرب العامل مبالغة منه في عدم المبالاة فما كاد يرفع كفه حتى نزلت على صدغه هو ، أي والله على صدغ الدب السميك ، كف ذلك الفتى ! ودهش الناس جميعاً وتحمس بعضهم فصفقوا وهرول الغول إلى دكانه فأحضر سكيناً ، ولكن الفتى باغته بكرسي ألقاه على رأسه ، ثم اختطف سكينه وأخذ يتلاعبه بيده ورفع السكين بالأخرى قائلا « هيه .. أفتح كرشك يا .. » وأخذ الناس السكين من الفتى ، وخاف البعض عليه من الدب ، ولكن ما راعنا جميعاً إلا الدب يرتمي على الأرض كأنه جذع شجرة ضخم والناس يصفقون للفتى ضاحكين معجبين . .

ونهض الفحل ثقيلا مستخزياً واستنوق الجمل، وحال الناس بين الفتى وبينه وإن الفتى ليتوثب ويتهدد ، ولست أدري لم طرأت على ذهني وقتئذ صورة ديكتاتور إيطاليا وكيف لبث يخوف العالم زمناً حتى اكتشف أمره .

وحسبت أن بين الفتى وبين ذلك العامل المسكين صلة من قرابة أو نسب ، ولكن لم يكن بينهما كما علمت شيء من ذلك ، حتى ولا مجرد المعرفة ، ونزلت إلى الشارع في ثياب البيت لأقابل البطل إذ مر ببابنا ، بعد أن دخل ذلك الجمجاع دكانه لا يلفظ كلمة ، ومددت يدي للبطل وقلت « أترضى أن تتخذني صديقاً » فضحك وقد فطن إلى أني رأيت كل شيء وقال في تأدب « يا فندم أنا محسوبك » وعزمت عليه فشكرني ومضى وأنا معجب بنخوته أسأل الله أن يكثر من أمثاله .

الخفيف